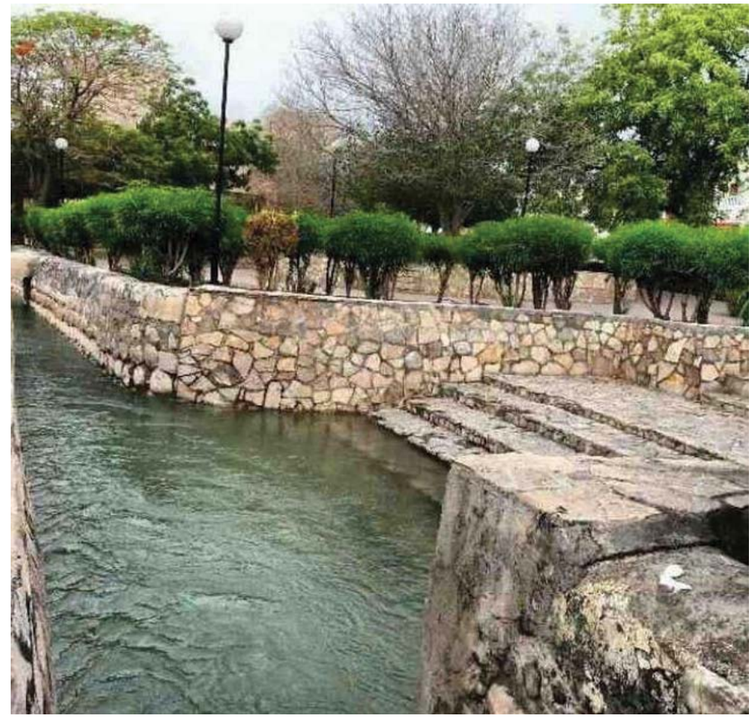

فلما وصلا إلى أحد الأفلاج...، نال منهما التعب كل مبلغ، فانطرحا كل منهما تحت شجيرة ليُلاقي حتفه. وعلى هذه الشاكلة عثر عليهما، ولكن لحسن الحظ قبل فوات الأوان، وسر اختيارهما ذويهما على الجانبين، فصدرت الموافقة على زواجهما، وتمّ الاحتفال بعرس بهيج للغاية". وتذكر أنها خيمت إحدى الليالي في صحراء النفود بين المراعي، "على طرف أحد الأفلاج التي اعتدنا عليها خلال طريقنا من الجوف...، ولا تُعدّ هذه الأفلاج ذات شأن بالمقارنة مع ما شهدناه إلى جهة الغرب"[12].

يُشاهد المستشرق الألماني يوليوس أوتينج Julius Euting الذي قام برحلته إلى شمال شرق الجزيرة العربية (1883–1884) في واحة تيماء "توزيع الماء بين ملاك البساتين... عبر قناة تتفرع منها جداول صغيرة لكل منها صمام يُمكن من خلاله حبس الماء، ومن المعتاد أن كل من له نصيب في تلك الجداول يقوم بجلب جمل للعمل في إخراج غروب الماء من أعماق البئر، كما يحرص بنفسه على صحة عملية توزيع الماء خلال تلك الجداول... التي تمتد عبر الشوارع". ويذكر أنه توجد بقرية كاف "قنوات أخرى لتصريف المياه الفائضة يُمكن أن يستفيد منها صغار الملاك"[13].

يكتب الرحالة الألماني ماكس فون أوبنهايم (Max von Oppenheim 1860 –1946)، الذي قام برحلته من البحر المتوسط إلى الخليج بين عامي 1892–1894، عن الينابيع والأفلاج والنخيل في شمال ووسط الجزيرة العربية، يقول: "تقع إلى الجنوب من الخرج واحات الأفلاج، وتوجد هنا ينابيع مشابهة لتلك التي توجد في الخرج، وكانت تغذي سابقًا نظام أقنية واسعة، لا يجري فيها الآن سوى سيح (مسيل) واحد أخذت منه الواحة اسمها...، وتغذي الينابيع الواحتين القديمتين في شرق الجزيرة، والتي تُشكّل مدينة الهفوف ومرفأ القطيف مركزهما، وتشكل زراعة أشجار النخيل المرتبة الأولى في اقتصاد الواحات، ولكن، من الممكن، أن تتمّ زراعة الحبوب أيضًا بالاعتماد على الري أو في الأراضي التي تسقيها الأمطار أو السيول"[14]. وفي موضع آخر يُشير إلى أن "العديد من هذه الينابيع متصل مع قرية بقنوات تحت الأرض مزودة بفتحات كبيرة للتهوية، تُسمى كهريز"[15].

يرتحل الرحالة الشاعر ثيودور بنت Theodore Bent وزوجته مابل، في اليمن وعمان قادمين من الحبشة في عام 1893، ويُشاهدا "الجداول تنساب مياهها فوق ما يُشبه جدارًا ضخمًا مُدهلًا، فتشكل شلالات خفيفة القوام، وتتدلى منها المقرنصات الحجرية، بشكل مشوش، وفي الوسط يُصبح عمقها 55 قدمًا، وأكبر طول لها حوالي الميل، وهي عبارة عن ظاهرة طبيعية رائعة"[16].

يبذل المبشر الأمريكي صموئيل زويمر Zwemer Samuel 1867–1952، عضو الإرسالية التبشيرية، منذ عام 1892 عدة محاولات لزيارة الإمارات العربية المتحدة، التي لم تغب عن ذهنه، ولكن من دون فائدة، إلا أن رغبته تحققت أخيرًا في مايو من عام 1900، حيث وصل الشارقة في 14 منه بعد أن مر في طريقه بجزيرة أبو موسى، ومنها إلى دبي، ووصف الطريق الذي سلكه بقوله: "على الرغم من أنه محفوف بالمخاطر والصعاب إلا أنه طريق جميل، وعلى هذا الساحل ينمو العديد من الفواكه مثل المانجو والنخيل، ويستخدم الأهالي للري طريقة تُسمى "أفلاج" جمع فلج، وهي تعمل عن طريق تحويل لمجرى الغدير ليصب في قنوات تروي المزروعات"[17].

يُشاهد، في الرياض، الدبلوماسي الدنماركي باركلي رونكيير Barkley Ronquier، الذي قام برحلته الأولى والأخيرة للجزيرة العربية في العام 1912، "الماء ينساب جداول رقراقة من جيوبها العديدة عبر قنوات تأخذه لسقي النباتات العطشى دائمًا"[18].

يخترق الرحالة البريطاني جون فيلبي John Phillby 1885–1960، شبه الجزيرة العربية بين سنتي 1917–1918، فقد كتب عن وسائل الري المتبعة في الأفلاج، واستخدام الكهاريز (الدبل) وهي مجاري مائية جوفية اصطناعية؛ بل أشار إلى احتمال وجود مجرى مائي قديم كان يأتي من خط تقسيم المياه في الأفلاج[19].

المراجع:

1 – ابن منظور: لسان العرب، عبدالله علي الكبير وآخرون (تحقيق)، (القاهرة: دار المعارف، د. ت.)، ص 3456، 3457.

2 – حسين محمد حسين: "نظام الأفلاج والثقب أو قنوات الري تحت الأرضية"، صحيفة الوسط، العدد 2631، (19 نوفمبر 2009م/ 2 ذي الحجة 1430هـ).

3 – محمود الأمين: شريعة حمورابي، (بيروت: دار الوراق للنشر المحدودة، 2007)، ص 25.

26: مجموعة من المؤلفين: شريعة حمورابي وأصل التشريع في الشرق الأدنى القديم، أسامة سراس (ترجمة)، (دمشق: دار علاء الدين، 1993)، ص 103، 104.

4 – "بعود تاريخه إلى ما قبل الميلاد، والهيلي أهم مواقعه، الأفلاج.. نظام ذكي للري"، صحيفة البيان، (23 نوفمبر 2013).

5 – جي. رسي. ولكنسون: الأفلاج ووسائل الري في عمان، محمد أمين عبدالله (ترجمة)، (مسقط: وزارة التراث والثقافة، 2003)، ص 68.

6 – "نظام الري في عُمان ما زال يعتمد على الأفلاج القديمة"، صحيفة الوسط، العدد 2002، (29 فبراير 2008م/ 21 صفر 1429هـ).

7 – جيمس ريموند ولستد: تاريخ عمان رحلة في شبه الجزيرة العربية، عبدالعزيز عبد الغني إبراهيم (ترجمة)، (بيروت: دار الساقي،2002)، ص 180–182.

8 – كارلو جوارماني: شمال نجد، رحلة من القدس إلى عنيزة في القصيم في العام 1864، صبري محمد حسن (ترجمة)، (القاهرة: دار الهلال، 2010)، ص 210.

9 – عوض البادي: الرحالة الأوروبيون في شمال الجزيرة العربية (منطقة الجوف ووادي السرحان) 1845–1922، (بيروت: الدار العربية للموسوعات، 2002)، ص 74، 83.

10 – س. ب. مايلز: الخليج بلدانه وقبائله، محمد أمين عبدالله (ترجمة)، (مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة، 1983)، ص 444.

11 – سعد العبدالله الصويان: محاضرات في أدب الصحراء العربية، (الدوحة: وزارة الثقافة والفنون والتراث – كتاب المأثورات الشعبية، 2013)، ص 114.

12 – ليدي آن بلنت: رحلة إلى نجد مهد العشائر العربية، أحمد إيبش (ترجمة)، (دمشق: دار المدى للثقافة والنشر، 2005)، ص 194، 198، 328.

13 – يوليوس أوتينج: رحلة داخل الجزيرة العربية، سعيد بن فايز السعيد (ترجمة)، (الرياض: دارة الملك عبد العزيز، 1999)، ص 156، 22.

14 – ماكس فرايهير فون أوبنهايم: البدو، الجزء الثالث: شمال وسط الجزيرة العربية والعراق الجنوبي، محمود كيبيو (ترجمة)، (لندن: شركة دار الوراق للنشر المحدودة، 2007)، ص 19، 20.

15 – ماكس أوبنهايم: من البحر المتوسط إلى الخليج: لبنان وسوريا، محمود كيبيو (ترجمة)، (لندن: دار الوراق للنشر المحدودة، 2008)، ص 289.

16 – بيتر برنيت: بلاد العرب القاصية، رحلات المستشرقين إلى بلاد العرب، خالد أسعد عيسى: أحمد غسان سبانو (ترجمة)، (بيروت: دار قتيبة للنشر والتوزيع، 1990)، ص 207.

17 – فاطمة حسن الصايغ: "الساحل المتصالح في كتابات المنصرين"، في كتاب عبيد علي بن بطي (تحرير): كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، (دبي: مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، 1996)، ص 308؛ نقلا عن:
Arabian Mission Correspondence. No. 753. Box 2. (May 1900).

18 – باركلي رونكيير: عبر الجزيرة العربية على ظهر جمل، منصور محمد الخريجي (ترجمة)، (الرياض: مكتبة العبيكان، 1999)، ص 174.

19 – محمد فائق عقيل: الجزيرة العربية في كتابات بعض الرحالة الغربيين، (الإسكندرية: مكتبة دار نشر الثقافة، 1962)، ص 26، 30.

صورةٌ وجدار

ناصر زين الدين

الإمارات العربية المتحدة

ذاتَ يوم
ستفتح أميَّ صندوقها الخشبيَّ
فتلمحني فوقَ منديلها خاتمًا
قد عراهُ الغبارْ.
وتبحث في ركنها عن صغيرٍ
تسلّل خلف الستائرِ
يقرضُ لقمته مثل فارٍ خبيثٍ
ويهرب من كوة البيت
قبل انبلاجِ النهار.
ذاتَ يوم ستدخل أختيَ ساخرةً
من شقي تسلّقَ فوق السياجِ
يراقبُ جارتها
وهي تحضنُ في سلة الصدر
إضمامةً من زهورٍ
بعشر زنابق فضّيةٍ،
سترت لؤلؤًا وبهارْ.

ذات يوم ...
سيسعى أبي نحو مدرسةِ الحيِّ
خلفَ خطاهُ
غلامٌ يسائلُ
عن شجرٍ يتشبَّثُ بالغيمِ
ينمو على ظهر حوتٍ
ويجفل قد أخطأ الدربَ لما استدارْ.
ذات يوم ..
سيأتلفُ الصحب
خمرٌ يحرر أحلامهم
وأمانٍ تفيض على الشفتين
يدغدغها الخمرُ
يُرفعُ نخبُ نديمٍ تأخر عن عيدهم
كلَّل الصَّدرَ وردًا وطارْ
ومازالَ يرمقهم باسمًا
من إطارٍ تسمَّرَ فوقَ الجدارْ.